"المُتخيَّل الديني" وإسقاطاته على قراءة السنة النبوية

"Religious Imagination" and Its Implications for Reading the Prophetic Sunnah

إعداد

الدكتور محمد أنس سرميني

أستاذ مشارك، دكتوراه في السنة وعلوم الحديث

جامعة إستانبول ٢٩ مايس

Mohamad Anas Sarmini

Associate Professor, Phd In Hadith Studies

Istanbul 29 Mayıs University

00905349126489

Anassarmene@Gmail.com

الملخص

تنتقد الدراسة منهجية الرفض المطلق والشك الجذري التي تبناها بعض الباحثين تجاه التراث الإسلامي، باعتبارها تفتقر إلى الأسس العلمية. توضح الدراسة أن هذه المنهجية تستند إلى فرضيات غير مثبتة، مثل وجود «مؤامرة كبرى» بين المحدثين عبر العصور، وهو زعم ضعيف يشير إلى خلل في النظرية الناقدة بدلاً من المادة المنتقدة. كما يعترض النص على القراءة الرغبوية للتاريخ التي تتجاهل معايير البحث العلمي، وعلى الإفراط في استخدام التفسير السياسي للتاريخ، الذي غالبًا ما يتسم بالإسقاطات والتحيزات غير الملائمة.

إن جلب نظرية المتخيل الديني إلى مجال السنة النبوية، يتجاوز منهجيات المحدثين الدقيقة التي اعتمدت على الجمع بين النقل الشفهي والتوثيق الكتابي، وكذلك الآثار المادية التي بقيت إلى الآن مثل النقوش والبرديات، مما يعكس جهلًا بالمنهجيات العلمية أو انحيازًا أيديولوجيًا. تقترح الدراسة أن يتم إخراج النظرية من إطارها الأيديولوجي وإعادة توجيهها نحو مجالات قابلة للتحقيق العلمي، مع التركيز على صحة النقل بدلاً من قبول العقل. كما تدعو إلى استخدام صيغة الاستشكال بدلاً من الحسم، مما يتيح للمحدِّث تحليل النصوص وتقديم أحكام متزنة بشأنها، سواء بالقبول أو الرد أو التفصيل.

الكلمات المفتاحية: (المتخيل الديني، الحديث النبوي، التفسير السياسي للتاريخ، الشك الجذري)

Abstract:

The study critiques the methodology of absolute rejection and radical skepticism adopted by some researchers toward Islamic heritage, arguing that it lacks scientific foundations. The study highlights that this approach is based on unsubstantiated assumptions, such as the existence of a "grand conspiracy" among hadith scholars across generations—a weak claim that reflects flaws in the critical theory rather than in the criticized material. Furthermore, the text opposes a wishful reading of history that disregards scientific research standards and excessive reliance on the political interpretation of history, which is often characterized by inappropriate projections and biases.

The introduction of the theory of "religious imaginary" into the study of the Prophetic Sunnah overlooks the rigorous methodologies of hadith scholars, which combined oral transmission with written documentation and preserved material evidence such as inscriptions and papyri. This oversight reveals either ignorance of scientific methodologies or ideological bias. The study proposes removing the theory from its ideological framework and redirecting it toward scientifically verifiable domains, emphasizing the authenticity of transmission over the acceptability of reason. It also advocates enabling hadith scholars to analyze texts critically and render balanced judgments whether acceptance, rejection, or nuanced evaluation.

Keywords: Religious Imaginary, Prophetic Hadith, Political Interpretation of History, Radical Skepticism, Criticism of the Sunnah.

مدخل مفاهيمي

نناقش في هذا المدخل بعض المقدمات التمهيدية التأسيسية للمُتخيَّل الديني ونبتدئ بدراسة حضور مصطلح المُتخيَّل في اللغة والتراث، ومن ثم نشأة نظرية المُتخيَّل بين الأدب والفلسفة، ونختتم بمسألة استدعاء النظرية إلى المجال الديني.

تتموضع نظرية المُتخيَّل في برزخٍ بين الفلسفة والأدب، حيث تعنى بدراسة دور الخيال في تشكيل الأفكار والمعاني وتفسير التجارب الإنسانية. فأما في السياق الفلسفي فهي تندرج ضمن دراسات الإدراك والمعرفة، وتركز في كيفية تشكيل الواقع من خلال المخيلة وتفسير الصور الرمزية، وخصوصاً ضمن فلسفات الفينومينولوجيا (الظاهراتية) خصوصا عند من يعد الخيال وسيلة للتجاوز والتأمل في الكينونة. وأما في السياق الأدبي، فإن نظرية المُتخيَّل تشكل أداة لقراءة النصوص وتحليلها وتتبع عناصر المُتخيَّل الأدبي باعتبارها غير واقعية إلا أنها ذات وتصورات ترتبط بالواقع وتعكسه وتؤثر فيه من خلال الرمز والاستعارة والتخييل، وذلك مما يسهم في تقديم قراءات تأويلية للأدب تركز على الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية.

الملاحظ في هذه النظرية أنه إثر نشأتها سرعان ما استدعيت إلى مجال جديد سوى المجال الأدبي والاجتماعي والفلسفي، وهو مجال يغلب فيه التصور والتخيل على الحقائق والوقائع أصلا إلى مجال يختلط فيه الأمران وقد يغلب فيه التاريخي الواقعي على المُتخيَّل المتصور، وهو المجال الديني. ولقد تم استدعاء نظرية المُتخيَّل في تفسير الديانة اليهودية والمسيحية -على سبيل المثال- بدءا من خمسينيات القرن الماضي من خلال دراسة آليات تشكل المفاهيم الدينية والرموز والعوالم الروحانية في أذهان المؤمنين، كذلك دراسة إسهامات الخيال في تصوير التجارب الدينية والمعتقدات وتفسير النصوص المقدسة. ففي اليهودية استدعي الخيال لتفسير الرموز التوراتية مثل «شجرة الحياة» و«الهيكل» و«الأرض الموعودة» والتي تلعب دورًا في تشكيل الهوية والروحانية اليهودية. وفي المسيحية استدعي الخيال لتفسير الرموز الإنجيلية مثل «الصلب» و«الفداء» و«القيامة» بل «الوجود الحقيقي ليسوع» أصلا». وكذلك الحياة

الأبدية والنعيم والجحيم.[1] وانتهى بها الأمر بنقلها من حيز الوقائع التاريخية إلى العقائد الرمزية التي لا يتطلب الإيمان بها إثبات وجودها.

(١) يمكن الرجوع لأمثال هذه الدراسات في سياق تحليل المُتخيَّل اليهودي والمسيحي، كتاب إرنست رينان ١٨٩٢م، حياة يسوع، الصادر عام ١٨٦٣م. وكذلك كتاب بول تيليش ١٩٦٥م، الشجاعة من أجل الوجود، الصادر عام ١٩٥٢م. وكتاب ميرسيا إليادي ١٩٨٦م، المُقَدَّس والمُدَنَّس، الذي صدر عام ١٩٥٧م، وكتاب نورمان كوهين ٢٠٠٧م، مطاردة الألفية، الصادر عام ١٩٥٧م، وكتاب كارل غ. يونغ ١٩٦١م، الإنسان ورموزه: سيكولوجيا العقل الباطن، الذي نُشر عام ١٩٦٤م، وكتاب غي ديبورد ١٩٩٤م، مجتمع المشهد، الصادر عام ١٩٦٧م.

المبحث الأول
مقولات رواد نظرية المُتخيَّل الديني: مرويات «انشقاق القمر وفضائل الصحابة والأئمة من قريش» أنموذجا

يذكر اسم بسام الجمل -وهو أستاذ تونسي- باعتباره الباحث الأكثر اهتماما اليوم بدراسات المُتخيَّل الديني وتوظيفه في الروايات الدينية المتعلقة بالقرآن والسنة معا.[١] والمُتخيَّل الديني عنده هو مجمل المنتجات السيميائية اللغوية وغير اللغوية التي يصطنعها الإنسان الديني عند الكلام عن العالم المتعالي المحايد من أجل الإجابة عن سؤال البدايات والدنيويات والنهايات.[٢] إن أهمية التعريف الذي طرحه الجمل يأتي في سياق تحديد مجالات عمل نظرية المُتخيَّل الديني، والتي سبق أن أوضحتها بأنها إما في دائرة الغيبيات الإيمانية «الله، الملائكة، اليوم الآخر وما يتصل به»، وإما في دائرة المعجزات النبوية «مما يستحيل وقوعه في العادة»، وإما في دائرة المبالغات البشرية «ككرامات الأولياء وخصائص بعض الأزمنة والأمكنة والأشخاص». ومن خلال التعريف الوارد وأسماء البحوث التي تمت الإشارة إليها في الحاشية السابقة نجده لا يستثني نوعا من الأنواع المذكورة للمُتخيَّل الديني في الدرس سواء أكان واردا في القرآن أم في السنة النبوية،[٣] وسواء أكان عقديا أو شعبيا، أم كان غيبيا أو مشهودا.

(١) من دراساته في هذا التخصص: أسباب النزول ٢٠٠٥: جعل فصلها الأخير متخصصا في قراءة الأسباب من منظور المُتخيَّل. ليلة القدر في المُتخيَّل الإسلامي ٢٠٠٧. رمزية اليد اليمنى في المُتخيَّل الإسلامي ٢٠٠٧. المُتخيَّل وصناعة الاجتماع الديني ٢٠١٣.المُتخيَّل الديني»، فصل من كتاب «أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد المجيد الشرفي» ٢٠١٤. جدل التاريخ والمُتخيَّل: سيرة فاطمة ٢٠١٧. المُتخيَّل الإسلامي بحث في المرجعيات ٢٠٢٣.

(٢) المتخيل الإسلامي بحث في المرجعيات،بسام الجمل، مقال في موقع مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرابط: https://www.mominoun.com/articles/449

حوار مع بسام الجمل: علوم القرآن والدراسات القرآنيّة في العالم العربي والإسلامي، تاريخ المشاهدة: ١١/١١/٢٠٢٤م، رابط الحوار في يوتيوب: https://youtu.be/0RKMr3n52Mc?si=k2g1Fs7UAkGR-2Jpm

(٣) يقترح دكتور رمضاني تعريفا للمتخيل باعتباره سببا لنشأة السنة النبوية كما يأتي: تأليف صور ذهنية تحاكي الواقع ولا يكون لها وجود حقيقي، يأتي استجابة للآفاق الذهنية للأجيال الإسلامية الأولى، ويبرز تفاصيل التصور الإسلامي للغيبيات والمعجزات ولكل ما هو مصادم للعقل مناقض للحس، فتكون الأخبار

ولا يرى في ذلك حرجا لأن العقائد الدينية مهما كانت صلبة فإنها تعود إلى أوهام الناس وثقافتهم وانطباعاتهم.

ويذكر بأن صناعة المُتخيَّل قد اتفق فيها العلماء والعامة معا، فقد استثمرها العلماء باعتبارها مكملة للنص الديني بحيث إنها ترافقه وتشرحه وتملأ فجواته، تماما كأسباب النزول التي وُضعت -بحسب تعبيره- متأخرة على النص وكانت تُدرَّس بشكل قصصي مرفقة بالآيات واحدة تلو الأخرى. ويرى أن المُتخيَّل الديني كان دائم التحسين والتطوير لنفسه بحيث يتجاوز التناقضات أو الخلل الذي كان يبدو عليه في أو الأمر. وعليه فإن المُتخيَّل الديني عنده مشغول بسؤال النشأة وسؤال التطور معا. وهو بذلك متابع لما ذكره أركون وحنفي أعلاه من أن الجانب الاجتماعي الدنيوي يحتضن الديني العلوي.[1] ولو أردنا تخصيص الكلام بأحد النماذج فيمكن أخذ أسباب النزول مثالا على ذلك، فإنه يدعي بأنها في معظمها إنتاج بعدي أي بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، ويستدل على ذلك بأمور، يأتي في مقدمتها:

١. الحاجة الموضوعية: حاجة أهل التفسير إلى روايات تملا الفجوات الواردة في النص، وحاجتهم أحيانا إلى روايات تخالف النص نفسه، لتسويغ مخالفته بالنسخ أو التخصيص أو التأويل.

٢. السكوت عن الدليل «بحسب تعبير شاخت»: بمعنى أننا نجد أن المفسر المتأخر يأتي بأسباب لا يذكرها المفسر المتقدم، ويشبهه التناقض الذي يمثله التعدد في أسباب النزول لآية واحدة.

٣. مخالفة قانون السببية: تضمن بعض الروايات على أحداث مخالفة لقانون السببية، وتلغي النظام المنطقي الذي تتأسس عليه قوانين الطبيعة.[2]

المنسوبة إلى النبي الواردة في هذه الأبواب اختراعا واختلاقا من مجموع الرواة، أملاه عليهم تصورهم وتمثلهم لهذه الأشياء، لا النقل الصادق لما قاله النبي أو فعله أو أقره. محمد رمضان رمضاني، نظرية المتخيّل الديني وأثرها في تشكل الحديث النبوي: دراسة نقدية، ص٢٨١.

(١) حوار مع د. بسام الجمل: علوم القرآن والدراسات القرآنيّة في العالم العربي والإسلامي، تاريخ المشاهدة: ٢٠٢٤/١١/١١م، رابط الحوار في يوتيوب:

https://youtu.be/0RKMr3n52Mc?si=k2g1Fs7UAkGR2Jpm

(٢) المصدر السابق، وانظر بسام الجمل، أسباب النُّزول، ص٤٠٢– ٤٠٣.

ويمثل على ذلك بحادثة انشقاق القمر التي رُبطت بآية ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، فالحدثة المُتخيَّلة جاءت أولا لسَدّ فراغٍ في القرآن باعتباره لم يَتحدَّث عن أَيِّ معجزةٍ للنبي صلى الله عليه وسلم مطلقا،[١] ويمكن له القول بأنها تخالف قانون السببية كما هو يبدو لأول وهلة مع احتمال تفاوت وجودها في بعض المصادر دون أخرى. وبقطع النظر عن حجم «المُتخيَّل" في هذه الأدلة والدعاوى! فإن الإشكالات العلمية الأخرى الواردة عليها لا تقل أهمية، والأولى تأجيلها إلى مطلب النقد والتقويم.

على أن أصحاب هذه النظرية واعون بإشكالية «ثنائية التاريخي والمُتخيَّل" باعتبارها ترد على نظريتهم بالنقض، وجوابهم بأنه لا حدود فاصلة بين العلم التاريخي والمُتخيَّل، وإنما هما متصلان، ولكي يُعرَّف شيء ما على أنه مُتخيَّل، لابد تُنفى عنه صفة التاريخية، فالغول لا يصنف كائنا غير واقعي إلا إذا أدركنا عالما بدون الغول.[٢] ولا ريب أن هذا الجواب وأشباهه هو من قبيل الأجوبة البلاغية المطاطة والتي لا تعني -من حيث المنطق والحدود- شيئا، فالتقابل المذكور بين الخيال والواقع في الغول مناف للاتصال الذي ذُكر أولا عن العلاقة بين التاريخي والمُتخيَّل، والإشكال ما زال قائما.

وأما عن المحرك «المُتخيَّل» والذي يوليه رُواد هذه النظرية كل الاهتمام والتركيز، والذي يمكن به تفسير آليات عمل نظرية «المُتخيَّل الديني» فيعطيها الطاقة الكافية للعمل والاستمرار والتطور الدائم، لا يعدو محركا مركزيا هو الصراع السياسي بين مكونها المجتمع المسلم منذ نشأته، وكل ما عداه من «محركات» تأتي على الهامش.

وفي سياق الكلام عن مرويات في فضائل الصحابة أو في السيرة عموما، يتساءل محمد حمزة من الذي يثبت بأن من كان في الغار مع النبي هو أبو بكر الصديق؟ لا دليل بين أيدينا سوى الروايات، وهي غير موثوقة وليست بدليل أصلا، وبالتالي فإن جميع المرويات في الحديث والسيرة التي تصرح بأن المقصود بقوله تعالى ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] هو أبو بكر إنما وُضعت في سياق توكيد خلافته السياسية

(١) أسباب النُّزول، بسام الجمل، ص٣٩٥ – ٣٩٦.

(٢) حوار مع د. بسام الجمل: علوم القرآن والدراسات القرآنيّة في العالم العربي والإسلامي، تاريخ المشاهدة: ٢٠٢٤/١١/١١م، رابط الحوار في يوتيوب:

https://youtu.be/0RKMr3n52Mc?si=k2g1Fs7UAkGR2Jpm

للرسول في وجه من اعترض على ذلك.[١]

فالحجة الوحيدة الواردة في سياق نسف الحادثة بأكملها هو ذاك التوظيف السياسي، مع التنبه هنا أنه لا تلازم بين صحة الخبر وتوظيفه السياسي، فهذا من بدهيات تحليل النصوص التاريخية، فليس كل نص وظف سياسيا هو نص منحول، والعكس صحيح فليس كل نص منحول هو نص وُظف سياسيا، هذا فضلا عن أن مسألة التوظيف كما تصور بهذه الطريقة لا تعدو كونها مسألة تأويلية «خيالية» لا يقيم عليها حمزة أي دليل تاريخي موضوعي يثبت استخدام الحادثة في سياق الخلاف السياسي والمفاضلة بين الصحابة. نعم بهذه «الحجج» المنهجية يتم نفي اصطحاب النبي أبا بكر معه في الهجرة، وبلا أي دليل موضوعي تاريخي سوى الاحتمالات الفرضية مع مقدار ليس بالقليل من التوهم والتوسم.

والأمر نفسه في كلامهم عن حديث الأئمة من قريش فإنه يرونه مُتخيَّلا واردا في سياق تثبيت حكم هذه القبيلة فقط،[٢] ولابد من التنبيه إلى أن الحديث لم يصح بهذا اللفظ أصلا. وأيضا حديث البخاري (٢٦٤٣) "وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا" هو سياق مُتخيَّل تعويضي للمرأة التي سُلب حقها السياسي في الفضاء العام، وعُوضت عنه في الجنة.[٣]

ومن جهة أخرى يُستدعى الدافع السياسي إلى المسألة من جهة أخرى وهي أثره في تحريك المُتخيَّل لإسقاط صفات الضعف عن الشخصيات السياسية المراد تلميعها مع تركيز الضوء على صفات القوة فحسب فيها، ويضرب حمزة على ذلك مثالا بسيرة عثمان بن عفان التي أغفل منها المُتخيَّل صفات «فساده المالي كما اتهمه بذلك من خرجوا عليه» وركز المُتخيَّل على غناه وكرمه وتجهيزه جيش العسرة.[٤]

---

(١) ورشة نقاش مفتوحة حول قضايا المُتخيَّل، تاريخ المشاهدة: ٢٠٢٤/١١/١١م، الرابط في يوتيوب:
https://youtu.be/Dr6F0lUGvPs?si=YzjlLdh-YUIi676g

(٢) ورشة نقاش مفتوحة حول قضايا المُتخيَّل، تاريخ المشاهدة: ٢٠٢٤/١١/١١م، الرابط في يوتيوب:
https://youtu.be/Dr6F0lUGvPs?si=YzjlLdh-YUIi676g

(٣) هاجر المنصوري، "صورة الأنثى في المُتخيَّل الإسلامي للجنة وسؤال الهوية الأنثوية، تاريخ المشاهدة: ٢٠٢٤/١١/١١م، الرابط في يوتيوب:
https://youtu.be/fT٠٧YBgGB٦I?si=٢FtC٠ozvqtHsvtJd

(٤) ورشة نقاش مفتوحة حول قضايا المُتخيَّل، تاريخ المشاهدة: ٢٠٢٤/١١/١١م، الرابط في يوتيوب:
https://youtu.be/Dr6F0lUGvPs?si=YzjlLdh-YUIi676g

والأمر في هذا المثال أيسر من سابقه باعتبار أنه يستدعي قصتين تاريخيتين واردتين في كتب التاريخ بحق عثمان، بقطع النظر عن صحة الدعوى والاتهام الوارد في أولهما بحق عثمان، فحمزة يقوم بترجيح إحدى الروايتين والموقفين بلا أي مرجح، ولا يتساءل هل الأصح تاريخيا أن نصدق حكم جمهور الصحابة من الجيل الأول أو أن نأخذ برأي من ثار على عثمان من رجال الجيل الثاني؟ وهذا كما ذكرت على جميع الأحوال أيسر من المثال الأول الذي يقوم على مجرد «الخيالات المتوهمة» فحسب.

يصر القائلون بالمُتخيَّل الديني بأنهم غير معنيين بالصحة «الإسنادية» أو التاريخية للأحداث المُتخيَّلة التي يأتون بها، وحجتهم في ذلك أن نظرية المُتخيَّل باعتبارها فرعا عن علوم الاجتماع لا التاريخ، فإنها تناقش ما يتنشر على ألسنة العامة ويذيع في تصورات الناس بقطع النظر عن صحته، فهم يبحثون في الغول كما يتصوره الناس دونما اهتمام بأصل وجوده أو واقعيته.

وهذا الاتجاه لا حرج فيه في سياق دراسة الظواهر الأدبية والاجتماعية العامة إذ إن أعذب الشعر أكذبه ولا إشكال في ذلك. إلا أن التمسك بهذا المدَّعى في سياق الدرس الديني مستشكل من جهتين:

الأولى منهجية: باعتبار أن الباحثين في المُتخيَّل لا يكتفون بإصدار الأحكام على تلك المُتخيَّلات الدينية التي لا تصح "كالغول" بل ينتقلون منها إلى وسم الدين كله بالرمزية والمخيال باعتباره غيبيات ورسوما ورموزا لا يمكن لها أن تتحقق في الأعيان والوقائع.

الثانية تطبيقية: أنهم لا يقيمون الدليل على وجود هذه الفكرة في أذهان العامة اليوم، فلا دراسات إحصائية في ذلك ولا استبيانات تثبت ذلك، وإذا ما كان دليلهم هو التراث نفسه بورودها في بعض كتب التراث فإنهم لا ينشغلون بإقامة الدليل على أنها كانت شائعة يوما ما، هذا فضلا عن التغاضي عن عشرات الأدلة المقابلة الأخرى التي تصرح بأن الشائع آنذاك هو خلاف ومعاكس ما ذكروه، والذي أخشاه أن تكون بعض الصور الواردة هي عن كتب "ألف ليلة وليلة، وعنترة وقيس، وكليلة ودمنة" وأمثالها من الكتب التي تصرح بأنها ليست إلا قصصا مختلقة لا يصح منها إلا أسماء أبطالها، فكيف يستدل على المُتخيَّل بما هو مُتخيَّل أصلا؟

وأضرب على ذلك مثالا دعوى عجيبة صدرت عنهم تتضمن أن هناك روايات ذكرت أن قلم معاوية قد نزل من السماء ذهبيا ليكتب به الوحي، ويحيل الأمر كذلك إلى السياسة، ولا يذكر الناقل لهذه الرواية لها مصدرا بل إنه ليس لها بهذا اللفظ مصدر أصلا:

ذكر السيوطي في كتابه ذيل الآلئ المصنوعة، وهو كتاب في الأحاديث المكذوبة،

حديثا عن أبي موسى الأشعري قال: لمّا نزلت آية الكرسي استشرف لها أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم، فقال كل رجل منهم: أنا أكتبها دون فلان. فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: أمّا أنا لا أستكتب أحدًا إلَّا بوحيٍ من السماء. قال أبو موسى: فإنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس إذ نزل الوحي، فغشي بعباءته القطوانية، فلمَّا سُرّي عنه الوحي طفق يقول: ما فعل معاوية الغلام؟. فأتى معاوية فذُكر ذلك له، فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى أذنه قلم، ومعه كتف بعير، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: ادنُ يا غلام. فدنا، ثم قال: ادنُ يا غلام. فدنا، ثم قال: ادنُ يا غلام فدنا حتَّى صيّر ركبته ركبة النَّبي صلى الله عليه وسلم، قال: اكتب يا غلام. قال: وما أكتب فداك أبي وأمي يا رسول الله؟ قال: اكتب {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} حتَّى انتهى إلى قوله {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}. فكتبها. فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: أَكَتبتَها يا غلام؟. قال: نعم يا رسول الله. قال: غفر الله لك ما قُرئت إلى يوم القيامة.[1]

فالخبر أولا ليس فيه شيء عن نزول قلم معاوية من السماء، ولا عن كونه ذهبيا، كما أن الخبر ليس فيه شيء عن كونه منتشرا، هذا بقطع النظر عن كون أصله واردا في كتب الحديث الموضوع.

(١) أورده السيوطي في الزيادات على الموضوعات، ١/ ٢٩٩. وقال عنه الذهبي في السير: باطل، ٣/ ١٢٨-١٢٩. كذا ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، ٢/ ٢٢، رقم ٥٠.

المبحث الثاني
تقويم نظرية المُتخيَّل الديني ونقد أدواتها في قراءة السنة النبوية

يصر رواد نظرية المُتخيَّل دائما على أن الباحث يجب ألا تكون له قبليات فكرية قبل الخوض في دراسة أي موضوع، مهما كان ثابتا قطعيا متواترا -كقضية ترتيب المصحف سورا وآياتٍ- إلا أن المدقق في مقولاته يجد أن لها قبليات عديدة لا يمكن أن توصف بالموضوعية، بعضها مصرَّح به وبعضها مسكوت عنه، وسنفرد مطلبنا الحالي في تحليل هذه القبليات بنوعيها.

القول بنظرية المُتخيَّل الديني بشكلها الذي شرحناه آنفا، يستلزم القول **بالقضايا القَبليّة** الآتية:

(١) سيولة الأديان والعقائد كلها مهما بدت تلك العقائد صلبة متماسكة، وذلك بتحويلها إلى مادة متخيَّلة رمزية. وهم يصرحون بهذه المقولة ويسندوها بالقول إن ترميز الدين قد يهدئه ويليِّنه ويصرف عنه التأويل المتطرف، فالقول بأن الهجرة لم تصح أصلا تاريخيا، وما هي إلا هجرة رمزية من الباطل إلى الحق، سينهي مقولة دار الكفر والإسلام وينهي حالة العنف بين الشرق والغرب. ولا شك أن هذه مقاربة في غاية التبسيط لمسألة مركبة معقدة كهذه، فالتطرف الذي نجده في الأديان كلها المرمزة وغيرها لا يمكن تجاوزه بهذا الترميز المقترح، هذا فضلا عن الإشكال الموضوعي الآتي.

(٢) القراءة الرغبوية للوقائع والتاريخ والأديان: مع الاستسهال بله التمادي في الخلط بين التاريخي والمتخيّل أولا في سلة واحدة، ومن ثم الحكم على المزيج كله بالنفي والرفض التاريخي المطلق، ومن غير أي أدلة أو مناقشة للألة الواردة في ثبوت تلك الحوادث "المنفية"، سوى رأي المتخيِّل وانطباعاته ورغباته، فهو الحجة الكافية لخلط المثبت بالمنفي والحقيقي بالخيالي. وعليه فإن القراءة التخيلية للدين هي قراءة رغبوية لا تميز بين حقيقة وخيال، وتأخذ بأزمتها معا إلى حقل المتخيّل مادام ذلك يحقق رغبة في ذهن المتخيِّل. وهذا يعني تجاوزا متعمدا لثنائية التاريخي والمتخيّل دون أيما معيار في التمييز بينهما كما سلف بيانه.

(٣) النقل الشفهي لا يمكن الوثوق به بحال، والوثيقة هي المكتوب فقط: فالذاكرة لا تحفظ الجزئيات، بل الكليات فقط ويكفي لها ٤٠ سنة لكي تنحرف عن محفوظها الأصلي،

ومن باب أولى فإن النظرية غير معنية بالصحة "الإسنادية" للوقائع والأخبار باعتبارها معايير ذاتية غير موضوعية. وبعبارة أخرى فإن نظرية المتخيل لا يمكن لها أن تستقر وتفسر الحوادث إلا بعد نفي مناهج التوثيق التاريخي وعلى رأسها مناهج المحدثين في النقد والتصحيح والقبول والرفض. وأحيل القارئ الفاضل في مناقشة مصداقية النقل الشفهي وحجيته بل وتفوقه في حالات متعينة على الوثيقة المكتوبة إلى عدة دراسات ومحاضرات لي مسبقة.[1]

(٤) المحرك الحقيقي لنظرية "المُتخيَّل" الذي يعطيها قوة الانطلاق والاستمرار هو التفسير السياسي للأحداث التاريخية، بحيث نختزل القرآن والحديث والأديان عموما بالصراع السياسي، والذي يراد له كلا الأمرين الآتيين:

الأول: تثبيت شرعية السلطة القائمة وإسقاط صفات الضعف والتشوُّه عنها.

الثاني: تشويه شرعية المعارضة السياسية لتلك السلطة القائمة، وإلباسها جميع صفات الضعف والسوء والفحش.

على أن التفسير السياسي للحوادث التاريخية -وإن صح أحيانا- فإنه لا يعدو كونه تفسيرا أحاديا اختزاليا يختزل جميع التفاسير والتحليلات الأخرى بلا أي ذريعة، وهذا فضلا عما فيه من إسقاط تاريخي غير مسوغ، بمعنى أنه يسقط الصراع السياسي الحالي في الدولة الحديثة الحالية بما تحتكره من قوى وعنف تجعل الصراع عليها على أشده، خلافا للدولة الكلاسيكية القديمة التي ما كانت تتمتع بتلك السلطات والإمكانات أصلا لقضايا أخلاقية ولقضايا واقعية مرتبطة بالواقع التقني العلمي آنذاك.[2]

(٥) لا تميز النظرية بواقعها الحالي بين جزأين متمايزين من الدين: النصوص التأسيسية للدين وقضاياه العقدية الكبرى القطعية المتواترة، وبين النصوص ظنية الثبوت فيه، فضلا عن التلقي الشعبي لكلا النوعين معا، كذلك لا تمييز بين النصوص التي تعنى بالجوانب الغيبية

---

(١) انظر محاضرتين في هذا الموضوع للباحث أنس سرميني:
النقل الشبكي للحديث: نظرات جديدة في الحديث الآحاد، وأحاديث أبي هريرة أنموذجا. الرابط:
https://youtu.be/06S1y0WkXeE?si=ZlQWxCET3lRLV8J0

رحلة توثيق الحديث النبوي، الرابط:

https://youtu.be/SnQPf_mb-lc?si=SsHbujU23LxrQ3SY.

(٢) للموازنة بين الدولة الكلاسيكية والدولة الحديثة، ارجع إلى كتاب وائل حلاق، الدولة المستحيلة الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاق، ترجمة عمرو عثمان.

في الدين من أخبار المستقبليات وعوالم البرزخ والآخرة والجنة والنار، والنصوص التي تعنى بعالم الشهود فيه كالمغازي والسير وأقوال النبي وصحابته وأفعالهم. فهذا الخلط بين تلك المستويات يفقد الثقة بالنظرية أولا، ويبعد سبل الاستفادة منها من جهة موضوعية.

(٦) لا يمكن لنظرية المتخيل أن تستقيم وتفسرَ الحوادث التاريخية، كذا الأخبار الدينية والأحاديث النبوية، إلا بكثير من التخيُّل والتوسم الذي يسد به المتخيل فجوات تحليله ويملأ نواقص سرديته به، ولا يكلف نفسه عناء البحث عن أدلة توسماته، بل إنه لا يتوانى عن الحسم في مسائل شائكة ذات أكثر من بعد.

(٧) إن انبثاق نظرية المتخيل الديني عن مجال الأدب قد سلب عنها صلابة البحث العلمي الموضوعي، وأكسبها سيولة الخيال الذي لا حدود له بحيث يمكن تأويل كل حادثة بما لاحد له من المتخيَّلات، وتكون جميعها متعارضة متخالفة ولا حرج في ذلك ما دام الأمر لا يستدعي سوى الربط بمسألة سياسية أو بصراع معين.

والسؤال الذي يهمنا الآن: ألا يمكننا البحث عن مشترك بين نظرية المتخيل وبين أدوات المحدثين في تمييز الخبر الصادق من المصنوع؟

لا أرى غضاضة في إعمال نظرية المخيال في البحث الحديثي ولكن بعد تصحيح الكثير من منطلقاتها:

- ألا يتم إعمالها في غير سياقها الذي يمكن لها أن تعمل به، أي أنها لا تعمل في الغيبيات التي يثبتها الخبر الصادق، فالوحي إن ثبت لدينا يجب الالتزام به التزاما دينيا غيبيا، ولا مجال للعقل وأدواته في نقده باعتبار المسألة تخرج عن اختصاصه.

- أن نتحول في توظيفها من كونها نتيجة مسلم بها إلى مستوى الإيراد والاستشكال والسؤال العلمي،[1] فلربما وقعت بعض المبالغات في المسائل غير الغيبية والتي لا تصح متنا، فضلا عن أن تصح إسنادا، وهذه أداة نافعة للمحدث والمؤرخ في تتبع دقة الحوادث التاريخية وعزل التاريخي عن المتخيل.

- أن يتجاوز أصحابها فكرة ترميز الدين وهدمه إلى البحث عن الحقيقة فقط، فالقبليات المعلمنة التي حملت بها النظرية قد حرفتها عن الموضوعية والغاية التصحيحية.

---

(١) ندوة الكرسي العلمي الثالث: إشكالية المُتخيَّل في التراث الإسلامي، عدنان الحسيني، صفاء الخزرجي، روح الله الموسوي، تاريخ المشاهدة: ٢٠٢٤/١١/١١م، الرابط في يوتيوب: https://youtu.be/eGUyfZ64pnU?si=klc5ONrMfkAhJ-uk

وبعبارة أخرى فإنه النظرية إن جاءت رديفة لعلم العلل وتحت باب الكشف عن الحديث الموضوع، ونقد الخبر غير الغيبي فحيهلا، وإلا فإنها لا يمكن أن تندرج في أدوات مناهج المحدثين في تمييز الصحيح من الباطل.

الخاتمة

إن النظرية لا تستقيم إلا من خلال قراءة التاريخ وتفسيره قراءة رغبوية تتفق مع أسبقيات وفرضيات الباحث لا مع مخرجات البحث العلمي الدقيق، هذا فضلا عن استنادها المبالغ فيه لنظرية التفسير السياسي للتاريخ، ولا يخفى أن أي تفسير للتاريخ يتم من خلال منظور أحادي صار أمرا مستهجنا في الأكاديميا العلمية، فضلا عن أن المنظور السياسي قد صار أكثر استهجانا لما يحتويه من إسقاطات وتحيزات عصرانية على التاريخ السابق لا تتفق ومنطق التاريخ وحقائقه. هذا فضلا عن كون التفسير السياسي للتاريخ يمكن تشبيهه بنظرية المؤامرة وهي التي بالرغم من صحتها لا يمكن الوثوق به إلى نهاية المطاف.

تتجاوز النظرية آليات التدقيق العلمي التاريخي التي ابتدعها المحدثون والتي رافق فيها النقل الشفهي الكتابة والتوثيق، والتي تمت على نحو شبكي يصرف احتمالات الكذب المتعمدة واحتمالات الخطأ المبالغ فيها ويبقى فقط احتمال الخطأ البشري الوارد، والذي تكفل لدرئه حقل العلل ونقد المتن، هذا فضلا عن كونها تتجاوز أيضا سلاسل النقوش والحفريات والبردي والصحف التي سلمت لنا إلى اليوم. إن هذا التجاوز غير العلمي يدل على جهل بهذه المنهجيات العلمية أو أسبقيات يريد رواد النظرية الوصول إليها مهما كان الثمن.

للاستفادة من النظرية وتفعيلها في سياق البحث الحديثي لابد من إخراجها من بُعدها الأيديولوجي أولا، ثم توجيهها إلى المجالات غير الغيبية باعتبارها إيمانية أصلا وقائمة على الخبر لا على التاريخ، الحسم فيها على صحة النقل لا على قبول العقل، ثم تحويلها من صيغة الجواب والحسم إلى صيغة السؤال والاستشكال الذي يجعل المحدث يجيل النظر في النصوص المنتقدة من جهة السند والمتن، ويصل إلى جواب فيها يفضي إلى القول بسلامتها أو بردها أو بقبول شيء منها دون شيء.

المصادر

ابن عراق، نور الدين علي بن محمد. تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، المحقق: عبد الوهاب عبد اللطيف، وعبد الله محمد الصديق الغماري، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٩ه.

بسام الجمل، المتخيل الإسلامي بحث في المرجعيات، مقال في موقع مؤسسة مؤمنون بلا حدود.

التازي، محمد عز الدين. الواقعي والمُتخيَّل من خلال علائق البحث النظري والكتابي في الرواية المغربية، مجلة الآداب، ج٢٨، ع٢، ٣، ١٩٨٠، ص٧٨ – ٨٢.

الجمل، بسام. أسباب النُّزول، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م.

حنفي، حسن. من العقيدة إلى الثَّورة، بيروت: دار التنوير، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٨م.

رمضاني، محمد رمضان. نظرية المتخيّل الديني وأثرها في تشكل الحديث النبوي: دراسة نقدية، كتاب مؤتمر النص الشرعي بجامعة القصيم، ٢٠٢٤م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. الزيادات على الموضوعات: ذيل اللآلئ المصنوعة، المحقق رامز خالد، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤٣١ه- ٢٠١٠م.

عشي، نصيرة. المتخيل مقاربة فلسفية. مجلة الخطاب، ج١، ع١، ٢٠٠٦م، ص٢١٥-٢٢٤.

علوش، سعيد. الواقع والمُتخيَّل والمحتمل في الرواية العربية، مجلة الآداب، ج٢٨، ع٢، ٣، ١٩٨٠، ص٦٩ – ٧١.

عمر، أحمد مختار عبد الحميد. معجم اللغة العربية المعاصرة، الرياض: عالم الكتب، ١٤٢٩ه- ٢٠٠٨م.

المصادر المرئية

حوار مع د. بسام الجمل: علوم القرآن والدراسات القرآنيّة في العالم العربي والإسلامي، تاريخ المشاهدة: ٢٠٢٤/١١/١١م، رابط الحوار في يوتيوب: https://youtu.be/0RKMr3n-52Mc?si=k2g1Fs7UAkGR2Jpm

رحلة توثيق الحديث النبوي، محاضرة لأنس سرميني، الرابط: https://youtu.be/SnQPf_mb-lc?si=SsHbujU23LxrQ3SY

صورة الأنثى في المُتخيَّل الإسلامي للجنة وسؤال الهوية الأنثوية، هاجر المنصوري، تاريخ المشاهدة: ٢٠٢٤/١١/١١م، الرابط في يوتيوب: https://youtu.be/fT07YBgGB6I?si=2FtC0ozvqtHsvtJd

ندوة الكرسي العلمي الثالث: إشكالية المُتخيَّل في التراث الإسلامي، عدنان الحسيني، صفاء الخزرجي، روح الله الموسوي، تاريخ المشاهدة: ٢٠٢٤/١١/١١م، الرابط في يوتيوب: https://youtu.be/eGUyfZ64pnU?si=klc5ONrMfkAhJ-uk

النقل الشبكي للحديث: نظرات جديدة في الحديث الآحاد، وأحاديث أبي هريرة أنموذجا، محاضرة لأنس سرميني. الرابط: https://youtu.be/06S1y0WkXeE?si=ZlQWx-CET3lRLV8J0

ورشة نقاش مفتوحة حول قضايا المُتخيَّل، تاريخ المشاهدة: ٢٠٢٤/١١/١١م، الرابط في يوتيوب: https://youtu.be/Dr6F0lUGvPs?si=YzjlLdh-YUIi676g

Sources:

Ibn ʿIrāq, Nūr al-Dīn ʿAlī ibn Muḥammad. Tanzīh al-Sharīʿah al-Marfūʿah ʿan al-Akhbār al-Shanīʿah al-Mawḍūʿah, edited by ʿAbd al-Wahhāb ʿAbd al-Laṭīf and ʿAbd Allāh Muḥammad al-Ṣiddīq al-Ghumārī, Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah, 1399 AH.

Bassām al-Jammāl. Al-Mutakhayyal al-Islāmī: Baḥth fī al-Marājiʿ, article on the website of Muʾminūn Bi-lā Ḥudūd Foundation.

Al-Tāzī, Muḥammad ʿIzz al-Dīn. Al-Wāqiʿī wa-l-Mutakhayyal min Khilāl ʿAlāʾiq al-Baḥth al-Naẓarī wa-l-Kitābī fī al-Riwāyah al-Maghribiyyah, Majallat al-Adab, vol. 28, issues 2-3, 1980, pp. 78–82.

Al-Jammāl, Bassām. Asbāb al-Nuzūl, Casablanca: al-Markaz al-Thaqāfī al-ʿArabī, 2005 CE.

Ḥasan Ḥanafī. Min al-ʿAqīdah ilā al-Thawrah, Beirut: Dār al-Tanwīr; Casablanca: al-Markaz al-Thaqāfī al-ʿArabī, 1988 CE.

Ramaḍānī, Muḥammad Ramaḍān. Naẓariyyat al-Mutakhayyal al-Dīnī wa-Atharuhā fī Tashakkul al-Ḥadīth al-Nabawī: Dirāsah Naqdiyyah, conference book of al-Naṣṣ al-Sharʿī, Qassim University, 2024 CE.

Al-Suyūṭī, Jalāl al-Dīn ʿAbd al-Raḥmān. Al-Ziyādāt ʿalā al-Mawḍūʿāt: Dhayl al-Laʾālī al-Maṣnūʿah, edited by Rāmiz Khālid, Riyadh: Maktabat al-Maʿārif li-l-Nashr wa-l-Tawzīʿ, 1431 AH / 2010 CE.

ʿIshī, Naṣīrah. Al-Mutakhayyal: Muqārabah Falsafiyyah, Majallat al-Khiṭāb, vol. 1, issue 1, 2006 CE, pp. 215–224.

ʿAlūsh, Saʿīd. Al-Wāqiʿ wa-l-Mutakhayyal wa-l-Muḥtamal fī al-Riwāyah al-ʿArabiyyah, Majallat al-Adab, vol. 28, issues 2-3, 1980, pp. 69–71.

ʿUmar, Aḥmad Mukhtār ʿAbd al-Ḥamīd. Muʿjam al-Lughah al-ʿArabiyyah al-Muʿāṣirah, Riyadh: ʿĀlam al-Kutub, 1429 AH / 2008 CE.

Visual Sources:

Interview with Dr. Bassām al-Jammāl: ʿUlūm al-Qurʾān wa-l-Dirāsāt al-Qurʾāniyyah fī al-ʿĀlam al-ʿArabī wa-l-Islāmī, viewed on 11/11/2024, link: https://youtu.be/0RKMr3n52Mc?si=k2g1Fs7UAkGR2Jpm.

Riḥlat Tawthīq al-Ḥadīth al-Nabawī, lecture by Anas Sarminī, link: https://youtu.be/SnQPf_mb-lc?si=SsHbujU23LxrQ3SY.

Ṣūrat al-Unthā fī al-Mutakhayyal al-Islāmī li-l-Jannah wa-Suʾāl al-Hawiyyah al-Unthawiyyah, Hājar al-Manṣūrī, viewed on 11/11/2024, link: https://youtu.be/fT07YBgGB6I?si=2FtC0ozvqtHsvtJd.

Nadwat al-Kursī al-ʿIlmī al-Thālith: Ishkāliyyat al-Mutakhayyal fī al-Turāth al-Islāmī, Adnān al-Ḥusaynī, Ṣafāʾ al-Khazarjī, Rūḥ Allāh al-Mūsawī, viewed on 11/11/2024, link: https://youtu.be/eGUyfZ64pnU?si=klc5ONrMfkAhJ-uk.

Al-Naql al-Shabaki li-l-Ḥadīth: Naẓarāt Jadīdah fī al-Ḥadīth al-Aḥād wa-Aḥādīth Abī Hurayrah Anmūdhajan, lecture by Anas Sarminī, link: https://youtu.be/06S1y-0WkXeE?si=ZlQWxCET3lRLV8J0.

Workshop on Issues of al-Mutakhayyal, viewed on 11/11/2024, link: https://youtu.be/Dr6F0lUGvPs?si=YzjlLdh-YUIi676g.